الفرع الثاني

أثر الوقف في إنشاء المؤسسات الدعوية

"لقـــد كان الوقف يمثل بؤرة النهضة العلمية والفكرية على مدار القرون؛ حيث أسهم الواقفون في مساندة المسيرة التعليمية، وذلك عن طريق تشييد المدارس والإنفاق عليها والإفادة من المساجد في التعليم، والعناية بتوفير مصادر المعلومات عن طريق وقف الكتب على المدارس وجهات التعليم المختلفة" (١) .

"فكانـــت هـــناك حركة علمية دائبة في حياة المسلمين تمثلت في إنشاء المكتبات العامة والخاصة وتأليف الموسوعات العلمية في العقيدة والفقه والطب والكيمياء والفيزياء والرياضيات والأدب، وهذا ما جعل ظاهرة التعليم والثقافة شائعة لدى أفراد المجتمع المسلم.

إن الرقي الذي وصلت إليه الأمة الإسلامية في وقت كان الآخرون يعيشون عصر الجهل والفوضـــى والتـــسلط والاستبداد، لم تكن لتصل إليه إلا بانتشار العلم والتعلم وتهيئة الفرص المخـــتلفة لطـــلاب العلم والتشجيع الدائم على النهل من مناهل المعرفة التي ساهمت في تأهيل الدعاة، و يُعد الوقف من أهم المؤسسات التي كان لها الدور الفاعل في تنمية التعليم سواءً داخل المساجد أو في المدارس أو في المكتبات أو في غيرها من المؤسسات الخيرية الأخرى" (٢) .

"لقد قامت نهضة علمية وثّابة رعتها مؤسسات تعليمية كبيرة وكانت تلك المؤسسات في ســـاحات المـــساجد، كمـــا أُنشئت في القرن الخامس الهجري – الحادي عشر الميلادي – المدارس التي غطت مراحل التعليم المختلفة.

ولعل أول وقف في الإسلام هو المسجد الذي بناه رسول الله ﷺ عند دخوله المدينة وهو

---

(١) أثر الوقف في تشييد بنية الحضارة الإسلامية د.محمد العيد الخطراوي – ص٤٧ – بحوث ندوة المكتبات الوقفية في المملكة العربية السعودية- محرم ١٤٢٠هـــ- المدينة المنورة.

(٢) دور الوقـــف في العملية التعليمية- د. عبد الله بن عبد العزيز المعيلي-ص١٦ ندوة مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية – شوال ١٤٢٠هـــ-مكة المكرمة.

مسجد قباء، ولقد كان المسجد هو معهد الدعوة الأساس؛ ففي وقت مبكر شرع المسلمون في تنظيم حلقات في المساجد لتعليم الصغار القرآن الكريم والقراءة والكتابة" [1] .

"إن تلاوة كتاب الله تعالى وحفظه، أول ما تصرف إليه الهمم؛ لأن ذلك من أعظم الغايات فطلب العلم درجات ومناقل ورتب، لا ينبغي تعديها ومن تعداها جملة فقد تعدى سبيل السلف رحمهم الله ومن تعدى سبيلهم عامداً ضل، ومن تعداه مجتهداً زل، فأول العلم حفظ كتاب الله ﷻ وتفهمه" [2] .

"وكان السلف رحمهم الله لا يعلمون الحديث والفقه إلا لمن يحفظ القرآن" [3].

"إن الوقف أسهم في إرساء دعائم ثقافية متنوعة في المجتمعات الإسلامية على مدى قرون طوال من بينها: -

أ-تشييد المدارس.

ب- تعيين المدرسين فيها.

ج- والإنفاق على طلبة العلم.

د- الاستفادة من المساجد في التعليم، لإيجاد زوايا للعلم، وحلقات للدروس العلمية.

هـ- العناية بتوفير مصادر للمعلومات في المدارس والربط والخلاوي وغيرها.

وقد شارك في هذه الأنماط الوقفية قطاع عريض من المجتمع خلفاء وسلاطين وحكامًا وأمراء وأثرياء وعلماء ووزراء وبعضًا من عامة الناس.

والمتتبع للتاريخ الإسلامي يدرك عظمة العناية المولاة لإنشاء المدارس الوقفية ودور العلم التي انتشرت في أرجاء العالم الإسلامي، حتى القرى النائية لم تخل منها فما بالك بالمدن الكبيرة

---

(١) تسخير البحث العلمي في خدمة الأوقاف وتطويرها د.ناصر بن سعد الرشيد ص١١ - ندوة مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية- شوال ١٤٢٠هـ مكة المكرمة.

(٢) جامع بيان العلم وفضله – أبو عمر يوسف بن عبد البر ٢٠٤/١-ط٢– ١٩٦٨م المكتبة السلفية المدينة المنورة.

(٣) المجموع- شرح المهذب – الإمام النووي – ٦٩/١ – تحقيق- محمد نجيب المطيعي بدون تاريخ.

الـــتي كانت تعج بالمدارس المتنوعة؛ كدور القرآن الكريم والحديث ومدارس لتدريس المذاهب الفقهية وأخرى للطب والصيدلة.

وقد اتسع نطاقها بسبب إقبال أهل الخير في الوقف عليها وتسابقهم إلى تقديم العون لها طلـــباً لمرضـــاة الله تعـــالى حتى شملت مجالات متعددة في الحياة، ففي المجال الديني والتعليمي أُنشئت:-

١- المساجد.

٢- الربط (الأربطة).

٣- الخوانق والزوايا والخلاوي.

٤- الكتاتيب.

٥- المدارس.

٦- المكتبات العلمية" [1]

إن الدعم السخي الذي حظيت به مؤسسات التعليم الديني أسهم إسهاماً كبيراً في دعم مـــسيرة الدعوة الإسلامية وذلك من خلال إعداد الدعاة وتأهيلهم التأهيل العلمي الجيد الذي مكـــنّهم من أداء رسالتهم في الدعوة إلى الله تعالى، هذا فضلاً عن بروز عدد كبير من العلماء الذين تلقوا تعليمهم في تلك المؤسسات التعليمية التي تلقى الدعم الشامل والكبير من الوقف.

وأرى الآن مناسبة الحديث عن المساجد باعتبارها المؤسسة التعليمية الأولى في الإسلام التي كانت تسهم إسهاماً أساسياً في تأسيس الدعاة لتحمل مسؤولية الدعوة.

---

(١) أثر الوقف في الجانب التوجيهي للمجتمعات- د.صالح بن غانم السدلان -ص٢٦-٢٧ ندوة "مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية" شوال ١٤٢٠هـ-مكة المكرمة.

المساجد – مكانة المسجد في الإسلام: -

"لقد رفع القرآن الكريم من مكانة المسجد، وميَّز عمارته والعناية به وإحياء رسالته بأن جعلها دلالة على الإيمان بالله واليوم الآخر، في الوقت الذي جعل تعطيل المسجد ومنع الناس من ذكر الله فيه ظلمًا لا يبلغه ظلم، ووعد عمَّار المساجد بالفلاح، وأوعد من يعطل رسالته بالخزي في الدنيا والعذاب العظيم في الآخرة، يقول تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [1].

ويقول تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [2].

ولذلك كانت أول أعمال الرسول ﷺ في المدينة، عمارة المسجد، وقال عن ذلك:(من بنى مسجداً بنى الله له في الجنة مثله) [3].

فهو المدرسة التي خرّجت الجيل الأول، ولا تزال تخرِّج الأفذاذ، وهو ميدان العلم والشورى والتعارف والتآلف" [4].

فللمسجد مكانة عظيمة في الإسلام؛ إذ هو نواة المجتمع المسلم، وله رسالته الكبيرة التي يؤديها، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:- "وكانت مواضع الأئمة ومجامع الأمة هي المساجد فإن النبي ﷺ أسس مسجده المبارك على التقوى؛ ففيه الصلاة والقراءة والذكر، وتعليم

---

(١) سورة التوبة الآيتان ١٧، ١٨.

(٢) سورة البقرة الآية ١٤.

(٣) صحيح مسلم- كتاب المساجد – باب فضل بناء المساجد والحث عليها ح رقم ٥٣٣-ص ٢١٥.

(٤) انظر:وظيفة المسجد في المجتمع – د. زيد بن عبد الكريم الزيد ص١٧-٢٠ ط١-١٤٢٢هـ -٢٠٠١م دار العاصمة- الرياض.

العلـــم والخطـــب، وفيه السياسة، وعقد الألوية والرايات وتأمير الأمراء وتعريف العرفاء، وفيه يجتمع المسلمون عنده لما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم" (١) .

"لقـــد كـــان المـــسجد مؤسسة تعليمية للصغار والكبار، وموئلاً لتلقي العلوم، فمهما تـــنوعت وتبايـــنت المؤســـسات التربوية الإسلامية فإن المسجد يتبوأ مكان الصدارة بين تلك المؤسسات كأول مؤسسة لها دورها البارز في التعليم والتثقيف.

وقد حفل تاريخه بأعظم ما في التراث الحضاري الإسلامي من خصائص فكرية وعلمية ودينية وقيم حضارية، بهرت الشرق والغرب، ومازالت تبهره حتى اليوم" (٢) .

"وقد تخرج من هذه المساجد أساطين العلم الأفاضل الذين أجمع المسلمون على إمامتهم ودرايـــتهم وما قاموا به من جهود عظيمة احتسبوا أجرها عند الله تعالى، في الدعوة الإسلامية ونشر الثقافة، وهذه مؤلفاتهم في مختلف الفنون في التفسير والحديث والفقه والتاريخ وغيرها"(٣).

"ولم يكـــن عجيباً أن ارتبط التعليم بالمسجد لزمن طويل؛ ففي كل مسجد يقام كانت تقام بداخله مدرسة بل مدارس فكرية وعلمية ودينية.

وكان المسلمون -على اختلاف طبقاتهم وأعمارهم- يؤدون في المكان نفسه قبل الصلاة أو بعـــدها شعائر العلم من تعليم وتعلم، وهكذا تكاثرت حلقات الدراسة بالمسجد، وتعددت مجالس العلم منه" (٤).

"إن المـــسجد كـــان جامعة كبرى للتعلم والتعليم، وإن أصحاب رسول الله ﷺ الذين خلفـــوه من بعده على أمانته، وأقاموا دولة الإسلام قوية وكانوا أكفأ الناس لقيادة البشرية إنما

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية- ٣٥/٣٩.

(٢) المسجد ودوره في التربية والتوجيه وعلاقته بالمؤسسات الدعوية في المجتمع د.صالح بن غانم السدلان ص ٢١-ط١ -١٤١٥هـ-١٩٩٤م- دار بلنسية- الرياض.

(٣) انظـــر: مجلة رسالة المسجد – إصدار رابطة العالم الإسلامي – العدد السادس – السنة السادسة – ١٤٠٣هـ ص ١٥ وما بعدها- محاضرة سماحة الشيخ/ عبد الله بن محمد بن حميد رحمه الله.

(٤) المـــسجد ودوره في التربية والتوجيه وعلاقته بالمؤسسات الدعوية في المجتمع – د.صالح بن غانم السدلان ص ٢١-٢٢.

تخـــرجوا على يديه في مسجده الذي كانت كل تحركاتهم للدعوة والجهاد ونشر الدين تبدأ من ذلك المسجد العظيم، وتبعوه هم على ذلك، فكانوا يعلمون الناس في المسجد فتخرج التابعون على أيديهم في المساجد.

ولم يكـــن علمـــاء المـــسلمين في العصور الأولى، يعرفون مقرًا للعلم يجمع الناس إلا المسجد"[1].

"لقـــد تخـــرج الصحابة من المسجد أمثال: أبي بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي وابن عـــباس ﷺ وكل أصحاب رسول الله ﷺ فتحوا الدنيا بأخلاقهم وعدلهم، وتمسكهم بأهداب الدين، قبل أن يفتحوها بسيوفهم ورماحهم.

لقد تخرج من المسجد العلماء الجهابذة، والفقهاء والمحدثون من أمثال: عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما، وأبي حنيفة النعمان، ومالك بن أنس، ومحمد بن إدريس الـــشافعي، وأحمد بن حنبل، والبخاري، ومسلم -رحمهم الله- وغير هؤلاء من أعلام السلف الصالح رحمهم الله، فكانوا مصابيح الهدى وشموس العلم والمعرفة" [2] .

"إن وجـــود المسجد على الهيئة التي أراد الله أن تكون لـــه كما كان في عهد الرسول ﷺ وخلفائـــه الراشدين، يكون من أهم أسباب انتشار العلم بين المصلين وغيرهم؛ لأن المصلي الـــذي يعـــتاد المساجد المعمورة بالعبادة والتعليم والذكر وقراءة القرآن لا تمضي عليه فترة من عمـــره إلا وقد تعلم الكثير من أمور دينه ودنياه في الكتاب والسنة والتفسير والفقه وغير ذلك، هذا إن كان مجرد مستمع في حلقات الدروس التي تعقد في المسجد.

أمـــا إذا كـــان طالباً ملازماً للحلقات وبيده كتابه وقلمه وورقه يقرأ ويستمع لشرح شـــيخه، ويكـــتب الفوائد التي يسمعها، فإنه بعد فترة من الزمن يكون مثل شيخه معلماً لـــه

---

(١) انظر: دور المسجد في التربية د. عبد الله بن أحمد قادري ص ٧٦-٧٨ - ط١ -١٤٠٧هـ-١٩٨٧م- دار المجتمع للنشر والتوزيع – جدة – السعودية.

(٢) انظـــر: رســـالة المسجد في الإسلام د. عبد العزيز محمد الله اللميلم- ص ١٠٨-ط١-١٤٠٧هـ-١٩٨٧م- مؤسسة فؤاد بعينو- الرياض.

طلابـــه الذين يتحلقون حوله، وهكذا تكثر حلقات تعليم العلم وهذا من أسرار كثرة العلماء المتبحرين في القرون الأولى، الذين صاروا أئمة في كل فن من فنون المعرفة" (١).

إن المـــسجد في الـــسابق كـــان يمـــثل الجامعة المتكاملة التي يتلقى فيها المسلم العلوم الإســـلامية، ولعـــل الحضارة الإسلامية خرجت من المسجد من خلال تلك العلوم التي درسها طلاب العلم، وتم تأهيلهم التأهيل العلمي الجيد، الذي مكّنهم من حمل رسالة الإسلام، والدعوة إلى مبادئه التي كان لهم الأثر العظيم في تقدم الأمة.

"فكـــان المـــسجد مجمـــع المسلمين الذي يهيئ لكل امرئ منهم سبيلاً إلى تلقى ثقافة الإسلام العامة، كما كان يعقد حلقات التعليم لطالب العلم، في مرحلته الأساسية وفي دراساته العالـــية، فقد اشتمل جامع القيروان مثلاً على جناحين للتعليم، أحدهما للرجال والآخر للنساء فازدهرت مؤسسات التعليم ونشط البحث العلمي في مختلف المجالات في رحاب المسجد.

وكان في كبار المساجد الجامعة، مكتبات يوقف العلماء كتبهم عليها، كما كان الخلفاء المسلمون وولاتهم، يفاخرون بجميع الكتب.

وقـــد ذكر المؤرخون أن المكتبات في معظم المساجد والجوامع والمدارس، ودار الحكمة ودور العلـــم، كانـــت مرجعاً للطلبة والعلماء والنساخ، وهذا خير دليل على تقدير المسلمين للكـــتب وإعجـــابهم بها، واهتمامهم بالمكتبات وإقبالهم عليها وعلى تكوينها، بل ولقد تسابق الخلفاء والأمراء على شراء الكتب ووقفها على طلاب العلم.

فقـــد أقـــام القاضـــي ابن حيان في نيسابور بجوار المسجد داراً للعلم وخزانة للكتب ومساكن للغرباء من طلاب العلم وأجرى عليهم الأرزاق، وعين لهم جميع ما يحتاجون إليه.

وتنقل الروايات حرص المسلمين الشديد على طلب العلم في المساجد بحيث إنهم كانوا يجلسون في حلقات ضم بعضها آلاف الطلاب" (٢).

---

(١) انظر: دور المسجد في التربية د. عبد الله بن أحمد قادري – ص ١٠٩.

(٢) المسجد ودوره في التربية والتوجيه– د. صالح بن غانم السدلان –ص ٤٦-٤٧.

إن المسجد كان يشكل الجامعة الأساسية التي يتخرج فيها الدعاة إلى الله تعالى وقد استطاع المسجد أن ينهض بهذه المهمة الأساسية -بفضل الله تعالى- ثم بفضل ما توفر له من دعم سخي وكبير، تم تقديمه من خلال إسهامات الوقف في شأن التعليم في المساجد من إنفاق على الدعاة والعلماء، وطلاب العلم، وتوفير كل احتياجاتهم العلمية والمعيشية.